نظرات في النفس والحياة

— ٣ —

خاتمة آراء لاروشفوكولد مع الشرح

قبل أن ننتقل الى غير من ذكرنا من المفكرين وقبل أن نستعرض طرفاً من أخبار حياتهم وأن نتأمل في المختار من أفكارهم يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفوكولد فمنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين وهو يمتاز عن كتاب هذا العصر والذين سبقوهم إذ أنه لا يتصنع الابتكار في الرأي تصنعاً ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطاً تضيع معه معالم الحقيقة. فانك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف في بعض الأحايين أين تنتهي الفكاهة وأين يبدأ الجد. أما لاروشفوكولد فان فكاهته تعمر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة. كما اتضح مما ذكر في المقالين السابقين وكما هو ظاهر في هذا المقال: —

(١) إن تصنّعُ القدرة والكفاية في أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية وهذا صحيح إذ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح في خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ويستريح إليه فلا يعاني الشدائد في معالجة نفسه أو ما يحسبها شدائد تدعّم في نظره وتهوله اذا حاول التهدّي الى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها.

(٢) إن حسن النصيحة لا يكفي لمعرفة الانتفاع بها ورجاحتها لا ترشد الى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها إذ أن المرء محتاج الى مقدرة على اتقان العمل والاهتداء الى طرقه وأوقاته المناسبة كي يعمل حسب النصيحة الراجحة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة اذا عمل من غير نصيحة وبإرشاد نفسه.

(٣) إنّ في المصائب نفاقاً كثيراً مختلف الأسباب والأنواع فمن الناس من يبكي ادعاء للحنان والرحمة، ومنهم من يبكي كي ينال عطف الناس ورحمتهم وإشفاقهم عليه، وإن لم يكن متأثراً في سريرته بمصابه، ومنهم من يبكي اذا فقد قريباً أو صديقاً كي لا يلومه الناس اذا لم يبك ولولا خشية الملامة ما بكى.

(٤) إنَّ خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن الى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا الناس من غير أن يفطنوا الى مخادعتنا لهم ولكننا نظن عكس ذلك حقاً .

(٥) لا يرتاع من احتقار بعض الناس له ولا يبيت مغيظاً مُحنَقاً إلاَّ من رأى نفسه جديراً بالاحتقار ، أو من كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر مُركَّب النقص أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسي أم نقص جثماني، فإن ضعف الأعصاب قد يحل محل النقص النفسي في إثارة هذا الغيظ . وإذا وثق المرء من نفسه فإنه قد يرجى منه التسامح في الإهانة اذا لحقته أكثر مما يرجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس إلاَّ إذا صار الانتقام لكل إهانة شريعة الشرف والعرف، كما يكون في البقاع التي يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء الى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأي فيه إلاَّ إذا علا شأنه ولم يعد أحد يشك في مقدرته ولم يقدر على تَتَشَمُّره بالتعيير فصفحه صفح القادر الذي حظي بإقرار الناس بقدرته وكرمه . وفي البقاع التي اختلَّ فيها الأمن لفساد الحكومات ترى كل إنسان يدفع عن نفسه خشية أن يتسامح في الاعتداء القليل فيناله الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يتهم بالعجز . واستبداد الحاكم يُولِّد الشعور بالنقص في نفوس المحكومين فيسرع كل منهم الى الانتقام من جاره اذا حسب أن إهانة لحقته إلاَّ اذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام . وكثيراً ما يسرع الحقير الى إهانة غيره . كي يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه وكي ينقل في زعمه وخياله تلك الحقارة الى غيره .

(٦) إننا في بعض الأحايين نفضِّل أن يخدعنا من نحب ونود عن أن يزول عنا ذلك الخداع فإننا به نعيش في نعمة المحبة والإخلاص اللذين نتخيلهما في نفس من نحب، فاذا زال عنا الخداع كان زواله نقمة وتعاسة . وقد يعرف المخدوع منا بنصف انتباهه إنه مخدوع فيتغافل حتى يغفل فيعيش في نعيم الانخداع .

(٧) لو كلَّف المرء نفسه من الجهد كي يصير الى ما ينبغي ويحب أن يكون قدر ما يكلف نفسه من الجهد كي تخفي ما هو عليه مما يريد اخفاءه لما احتاج الى نفاق ، اذ أن الجهد في سبيل الرياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر ما في الجهد الذي يصير به الى ما ينبغي ويحسن .

(٨) إن مغالطة المرء الناس كي يخفي حقيقته عنهم مما يساعده على إخفاء حقيقته عن نفسه سواء أنجحت المغالطة أم لم تنجح ، اذ أنها لو نجحت مغالطة المرء الناس كان نجاحها

هاتفاً يتفع لنفسه عند نفسه كي تخفي حقيقتها عن ذاتها ، وكان نجاحها برهاناً على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه ودليلا على ما يوهمها من أمرها ، وإذا خابت مغالطته الناس ، احتاج الى الامعان في إخفاء حقيقته عن نفسه كي يدفن بذلك أساليب مغالطة الناس وكي يعرف كيف يتجنب الخيبة في خداعهم .

(٩) إننا نرتاح الى رؤية من نتفضل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا الى رؤية من يجودون علينا وينعمون — إلا إذا خشينا أن يورطنا الاولون حتى نجود بما لا نود أن نجود به ، واذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين اذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال . أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فنقول لاروشفوكولد هو الصواب لأن رؤية من نجود عليهم تدعو الى الزهو والارتياح والخيلاء والثقة بالنفس ، ورؤية من يجودون علينا تدعو الى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز .

(١٠) كثيراً ما يبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة — ولعل سبب ذلك أن شدة الاحساس بالحسد لا يستطاع ايقافها وانتهاؤها كما لا يستطاع إيقاف المندفع في سيره إذا بطل الدفع فيظل سائراً بعد الدفع مدة ، أو لعل السبب أن المحسود لا يغتفر لمن زالت نعمته تمتعه قديماً بالنعيم الزائل فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن وحتى ينتقم المحسود على ابتهاجه بها وقد يزداد الحاسد غيظاً إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن .

(١١) القدوة عدوى وما من خير أو شر إلا وله قدوة وعدوى ، فالاقتداء بالخير إنما يكون المنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس ، والاقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر في كثير من الاحايين الخوف والحذر وتجنب الملامة والعتاب فاذا لم تجد النفس ملامة ولا عقاباً بل وجدت مشجعاً وعسنا ورأت أن مواقعة الشر أمر عالم غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقعته اقتداء بمن يعمله ومن أجل ذلك كثيراً ما تنقلب المقاييس في الأماكن والازمنة المختلفة لا سيما في عصور الثورات والانقلاب والتغير ، ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة في الحياة اليومية إذ يقبل الناس على الشر لأنهم يجدون من يعده ويعمله محمدة وخيراً لا شراً ، وقد يتباهون به من أجل ذلك .

(١٢) كثيراً ما يفخر الانسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه فهي وإياها في طرفي نقيض وهي لبعدها عنه تأمن الناس

عن عيوبه ونصيبهم من نقائصه . ومن أمثال ذلك أن ذوي التردد والعجز والجبن كثيراً ما يدعون التهور والخرق والحمق والتسرع في الاندفاع من غير تروٍّ مقتاً لترددهم واحجامهم والذين يسهل انقيادهم يدعون العناد والتصلب والاصرار على رأيهم ويفتخرون بذلك إخفاء لسهولة انقيادهم .

(١٣) من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى انها لا تضره ولا تصيبه بسوء، وان أصابت غيره من الناس، وهذا الغفران يكون ما دام المرء ناظراً الى أصدقائه بعين الرضا وكثيراً ما يغتفر لهم خياناتهم أصدقاءهم ما دام الغافر يرى أنه بمأمن من أن يخونوه لأنه يزعمه عندهم في منزلة أعز وأرفع — وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به. أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان الى الوفاء واستنامة الى عزته ومنعته فانه لا يصفح للغادر كما فعل قديماً بل يسخط أشد السخط . ومصاحبة الرجل صاحب الشر على ما في ذلك من خطر انما تكون لأسباب متعددة فبعض الناس يلازمه كي يعرف شره ونيته وما يبيت فيتجنب بذلك ما يتوقع من شره ، وبعضهم يلازمه ويجاريه زلفاً اليه واتقاء لشره بالتزلف والتقرب ، وبعضهم يتابعه كي ينتفع بشره وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه في سريرته جرأة على الشر ليست له ، فزاملته له إعجاب مستتر وهذا لا يمنع من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس .

(١٤) يقول التعساء المحرومون أن الحظ أعمى، ويقول السعداء أن الحظ مبصر، إذ كل من الطائفتين تدعي الفضل، فالطائفة الاولى تعتقد أن الحظ لا يستطيع لعماه رؤية فضلهم والطائفة الثانية ترى أنه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة .

(١٥) في بعض الأحايين يشكو المرء من نقص بعض ملكات عقله كي يدفع عن نفسه التهمة في ملكات أعز وأرفع ومثل ذلك انه قد يشكو من ضعف الذاكرة ولكنه لا يشكو أبداً من ضعف ملكته في الحكم على الحقائق مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة وهذا لا ينفي صدق قول مونتاني الفرنسي صاحب الرسائل المعروفة اذ قال إن ملكة الحفظ والاستذكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة الى ملكة ضعيفة في الحكم على الحقائق

(١٦) كثيراً ما تنفذ أمور باسم الحب وتعمل أعمال وتقال أقوال ولا شأن للحب في كل ذلك، ومثله مثل الدول التي كفت يد الحاكم — مثل دوق جمهورية البندقية — وقلت سلطته ومع ذلك تجري كل أمور الدولة باسمه .

(١٧) من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة

الثانية، ولكن ذاكرته جلفوتها لا تستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جليسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولاً مكروهاً — وقد فسر فرويد هذا النسيان في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما تريد نسيانه وأن تدفع به إلى الوعي الباطن.

(١٨) لو استطاع مستطيع أن يمنع رجلاً من أن يملق نفسه وأن يمدحها سراً أو جهراً ومباشرة أو غير مباشرة وبالقول أو بالعمل وبالخاطر الذي يخطر في النفس أو في الظاهر وفي الحقيقة أو في الخيال لكان هذا الانسان الممنوع من تمليق نفسه بأية وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم ملالاً من الحياة.

(١٩) يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر كبير في تكوين آرائهم ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر — وكثيراً ما ينسونه اذا كانت لهم فائدة في نسيانه، بل قد ينكرونه.

(٢٠) الأحاسيس والميول النفسية والصفات التي تتصف بها قد تولد أضدادها. ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعاً بدل أن يفر إذا أحست نفسه أن في الفرار ضرراً أعظم أو إذا حسبت ذلك أو إذا جُن جنونها من الخوف فاندفعت من غير تروٍّ، والخوف يُسبِّب الثبات أيضاً، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأي أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتاً عليه.

(٢١) أشد ما ينبغي أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تُغطّي على الصواب اذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسباباً وحججاً وأدلة لأن العقل كثير الافتنان في استنباط الحجج وتمويهها تعزيزاً للميول النفسية والشهوات، وتدريناً لما لا يسوغ.

(٢٢) كما ان الفضل ثمرة فان له موسماً، والفضل الذي يكون في غير موسمه كالفاكهة التي قد تأتي في غير موسمها وموضعها، فاذا بعدت كل البعد عما يناسب مزيج ذلك الموسم الغريب عنها كانت مستهجنة غير مقبولة، فالبطيخ المُبَرَّد في برد الشتاء لا يستحب، وكذلك الفضل اذا جاء في غير أوانه ومكانه وكان عند من لا يقدّره يُستهجن ويُبرد.

(٢٣) الاعجاب بالنفس موجود في كل نفس ولكنه يختلف في الطرق والوسائل التي يظهر بها ويفصح بها نفسه وقد يختفي زمناً كي يتمكن ويحتال وهو اذا لم يظهر بالقوة ظهر

بالمكر والحيلة وقد يظهر ويفوز بطلبته حتى بالتملق والتواضع فهو كما قال لاروشفوكولد دائماً يعوّض نفسه ويتخذ كل أعجوبة ووسيلة كي لا يخسر شيئاً وان ادّعى الخسارة والتخلّي عن الغرور والكبر وكان الانسان قد وُهب من ملكات الجسم ما يناسب مطالبه وأعماله فقد وُهب من الكبر ما يخفي به نقائصه عن نفسه والاصل في ذلك أن يكسبه ثقة بنفسه كي يستطيع ان يعيش فاذا زاد عن حد الصلاح كان مفسداً .

(٢٤) ان بعض صفات الحد مثل الحواس فمن لم يجربها ولم يعرفها في حياته وولد خالياً منها لا يستطيع ادراك كنهها كالذي وُلد أعمى يصعب عليه ادراك معاني البصر كلها ، وكذلك من خلا من بعض صفات الحد لا يستطيع ان يفهمها وقد ينكرها أو يماري فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء — والمراد بالخلو منها انه لم يتعودها ولم يعود نفسه ارتياد مواردها واتباع أحكامها .

(٢٥) ان الغريزة تعوض بعض التعويض عما يفقده المرء بسبب نقص حظه فهي تعلّم الفقير ان يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة من هو أغنى منه ، وتجعل له المكر عوضاً من نقص العقل أو ضعف الجسم .

(٢٦) ان رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة اذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية إلا اذا كان العقل وهو يدعي الاستقلال خادماً للميل النفسي ومحتالاً له بذلك الادعاء كي لا يفطن الناس الى انها رغبة النزوات النفسية لا رغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها .

(٢٧) كثيراً ما يكون الاغتياب باعثه الغرور أكثر من خبث النفس فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب ان يغتابك إذا كان مغروراً ، وأي الناس يخلو من الغرور ، ولكننا كثيراً ما يدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثه الغرور .

(٢٨) ان السرور الذي نجده في التحدث عن أنفسنا ينبغي أن يفطننا إلى انه يسبب الامتعاض لغيرنا ، فان غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لا يطاق — ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه ، ولا يفطن الى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه .

(٢٩) أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضاً آخر ، فالحب أو الطمع أو البغض اذا كان أحدها شيء من أمثالها مرضاً نفسيًّا وانتهى ، فكثيراً ما ينتهي الى اختفاء كاختفاء النار في الرماد ، أو الى خمود كخمود البركان الذي ربما ثار بعد خموده — وهو إذا اختفى فقد يُسَبِّب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص . ولعل هذا ما يعنيه بقوله : « ان النفس قد تنتقل من مرض الى مرض » .

(٣٠) ان الغرور كثيراً ما يساعد المرء على تحمل آلام كثيرة ولكنه قد لا يساعد على تحمل آلام الغيرة والحسد والاحساس بالعار لأنها آلام إذا استشرت انقضت من ذلك الغرور الذي يراد للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه فتقضي على العماد الذي يعتمد عليه لتحملها .

(٣١) ان الغرور كثيراً ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبه وميلها . اما العقل فقلما يستطيع بالحاجة ان يحمله على ذلك — ومن أجل ذلك كثيراً ما يعمل المرء أعمالاً فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لا طبعه وميل نفسه .

(٣٢) ان الخجل الذي ينفعأ بسبب مدح لا نستحقه قد يحملنا على عمل أعمال عظيمة ممدوحة وما كنا نعملها لولا ذلك الخجل — أو الميل الى الخجل أو الخوف من الخجل أو الحذر من معرفة الناس عيبه . فيظن الناس ان هذه الأعمال صادرة من طبع دائم ، ويحسبون إنها وتيرة في الخلق وهي ليست كذلك .

* * *

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردي وشوبنهور ولاروشفوكولد . والقارىء يرى ان لاروشفوكولد انما استنبط ما استخرج من آراء في النفس بأن جعل رائده أثرة النفس فتتبع الأثرة في مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم ورد ما خفي أو بعد عنها الى أساسها ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة في حياة الناس .

البحث بقية ع . ش